معتقد أبي العلاء المعري

في الدين والخالق

ما كنت لا كتب في أبي العلاء المعري شيئا لولا أن لي في مذهبه فكرة قد أكون مسبوقاً بالبحث فيها ، وان كنت لم أقرأ حتى اليوم بحثا تناول معتقد أبي العلاء انتحى فيه ذلك المنحى الذي أنحوه لدى النظر في عقيدته . والحقيقة أن الناس مختلفون في أبي العلاء هل هو متدين ؟ ومن ثم يوجب عليه تدينه أنه يعتقد بوجود الله ، أم انه آلهي صرف يعتقد بوجود الله على اعتبار أنه علة العالم ومصرف حالات هذا الكون ومبدعه ومدبره ومن ثم يجحد الاديان ، مستقلا أمر الاعتناء بالانسانية في جانب الله ؟ فان من الفلاسفة الآلهيين من يقول بأن أمر العناية بحالات الانسانية فوق هذه الارض و بمنقلبه بعد الموت انما هي أشياء لم تخرج عن كونها تصورات باطلة سيق فيها الانسان بمقتضى غريزته و بقدر جهله بحالات العالم الطبيعية الحافة به ، وان الله (سبحانه وتعالى) خلق العالم و برأ الاحياء على مقتضى نواميس سبق في علمه أن تظل كما كانت وكما هي كائنة وكما ستكون ، وسبق في علمه مع ذلك أن تكون هذه النواميس أبدية أزلية لا تتغير ولا تتبدل . فهو على هذا الرأي مصرف الكليات ومدبر الكون في مجموعه . وعلى ذلك يكون أمر العناية بسعادة الانسان فوق الارض وخلاصه بعد الموت ، أموراً جزئية فعلها مناقض لما سبق في علمه القديم أن يكون . أذكر لبعض الفلاسفة رأيهم هذا . واذكر أنني أمضيت وقتا ليس بالقليل مع أحد مشهوري الادباء المعروفين نتصفح ما كتب أبو العلاء لنستخلص من آثاره كل شيء يدل على اعتقاده بوجود الله و بفكرته في الدين ، فوقفنا على كثير من الآراء المتناقضة والوان من مختلف النزعات في أبيات تظهر فيها عقيدة أبي العلاء في وجود الله ظهورا جليا واضحا لا يشوبها شبهة ولا تحف بها ريبة ، غير أنك لا تلبث أن تجمع كل ما قال أبو العلاء مما يدل على اعتقاده بوجود الله ثم تذكر قوله :

قلتم لنا آله قديم قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان ولا زمان ألا فقولوا

هـذا كلام له خبيء معناه ليس لنا عقول

حتى تحف بك الريبة في حقيقة عقيدته في الله (سبحانه وتعالى)، فهو يسلم بأنه (سبحانه وتعالى) حكيم ولكن عقله يأبى عليه أن يسلم بأنه بلا زمان أو مكان ! فكيف كل هذا ؟ كيف يمكن أن نعتقد بأن الله حكيم وأنه علة العلل ومبدع الاشياء ثم في الوقت نفسه يشارك المعاولات في صفاتها من الحد بالزمان والمكان ؟ السبب في ذلك يمكن تعليله .

أرجع معى أيها الباحث المتريث برهة الى النظر في حالات جسمك الطبيعية وسايرني هنيهة في بحث طبيعي منطقي نخرج منه بنتيجة تعلل لنا السبب في أن أبا العلاء يسلم بأن الله حكيم ثم لا يستطيع أن يسلم بأنه بلا مكان ولا زمان

أنت انسان تبصر وتلمس ويسمع وتذوق وتشم وليس فيك من صفات تدل على وجودك غير هذه الصفات التي اصطلح على تسميتها بالحواس الخمس . وأنت في هذه الآونة تقلب بين يديك كرة من الحديد الأصم . هي مادة اصطلحت على تسميتها حديداً . سائل نفسك بعد ذلك كيف يمكن أن تعرف أن هذه الكرة خارجة عن حيزك ؟ تعرف ذلك لانك تراها وتلمسها وتسمع رنينها إذا القيتها على الارض . وقد تذوقها اذا وجدت لها عندك طعما وقد تشمها اذا كانت تنبعث منها رائحة . فاذا فرضت أنك فقدت حاسة البصر فانه يتعذر عليك أن تراها . واذا فقدت حاسة اللمس تعذر عليك أن تشعر بها . واذا فقدت حاسة السمع أستعصى عليك أن تسمع رنينها اذا ما أصابت جسما صلبا تلقى عليه . اذن يترتب على هذا أنك لا تعرف لهذه الكرة من وجود خارج عن حيزك الا من طريق حواسك . واذن فكل ما تدرك من وجود الكرة راجع الى ادراكات كائنة فيك وليست خارجة عن حيزك ، وعلى هذا يتعين عليك القول بأن فقدان الحواس يمنع عليك ان تدرك للكرة وجوداً حقيقياً خارجاً عن حيزك ، مع أنك مع كل هذا لا تستطيع مطلقاً أن تعتقد بأن

الكرة ليست خارجة عن حيزك وعن وجودك المادى ، ذلك لان عقلك قد ركب عن أن يمضى معتقداً بأنها خارجة عنك بعيدة عن وجودك وان لها وجوداً آخر غير وجودك . على هذا جبل الانسان وعلى هذا تركب عقله ، فاذا اعتقد شخص ساعة بأن الكرة فى حيزه داخلة فى وجوده وأخذ يؤدى عمله سائرا على هذا الاعتقاد ، فعندها نقول بأن ميزان العقل قد اختل وتفككت ألفته . ذلك لأن للعقل ألفة . لا بل لن تسلم الا بأن الكرة تشغل من المكان حيزاً خارجا عن حيز جسم الانسان الشاعر بوجودها من طريق حواسه . هذ أمر سلم به كل المشتغلين بالعلم الطبيعى كما سلم به كل المناطقة ، فلنتركه هنيهة الى بحث آخر يمت اليه بآصرة قريبة

فى الفلسفة الحديثة اصطلاح وضعنا له « الفكرة الناسوتية » ترجمة ، ولست اعلم مقدار انطباق هذه الترجمة على الواقع ، غير أنى أستعمل الاصطلاح هنا ترجمة لكلمة « انثروبومورفزم » أى الفكرة الفلسفية القائلة بتزويد الله سبحانه وتعالى بشىء من الخصائص الانسانية والصفات البشرية . على أن مضينا فى الاعتقاد بأن الله لن تخرج صفاته (تجلت عن الشبائه) عن أشياء تتحيز فى أذهاننا حسب نماذجنا العقلية لامر فيه من الخرق بقدر مانقول بأن الشمس تدور حول الارض أو أن اثنين واثنين لا يكونان أربعة أو بقدر ما ننكر وجود المحسوسات . أمر يتنافى لدى أول وهلة مع اعتقادنا بان الله مخالف للحوادث بمقتضى انه علتها الاولى . غير اننا مع كل هذا لا نستطيع أن نكون فى موجد الاشياء فكرة غير مصبوبة فى قالب تصوره لنا نماذجنا العقلية ، لان هذا يخرج عن طوق الذوات الفانية .

خذ لك مثلا « اسبينوزا » فانه ابعد الناس عن الاعتقاد بأن الخالق مكون على نموذج عقله ، ولذلك قال بان الله عبارة عن « امتداد وفكر » غير أن دكتور « مارتينو » لم يلبث أن نضح فكرته قائلا من أين أتى له ان الله امتداد وفكر الا من

النظر في حالاته الطبيعية؟ذلك لان الامتداد والفكر امران هما اخص ما تتصف به الاجسام والعقول . وعلى هذا فقس بقية ما ذهب اليه فلاسفة مثل هيجل وسبنسر وغيرهم .

فاذا رجعت بعد هذ الى فكرة أبي العلاء ،وجدت أن الرجل شاك لا أدري في المحسوسات ،حسي في الظواهر الطبيعية. توحى اليه ألفة عقله بأن الله حكيم . ذلك لانه يقيس الحكمة في الله مطبقا اياها على خصائص عقله . ولكنه ينكر انه بلا زمان ولا مكان لانه لا يستطيع أن يحتفظ بألفة عقله في الوقت الذى يمضى فيه معتقداً بأن هنالك شيئا خارجا عن الزمان والمكان ،في حين أن حالات جسمه الطبيعية وحواسه التي يدرك من طريقها ماهو خارج عن حيزه ،لا توسع مجال الاعتقاد في شيء خارج عن حد الزمان والمكان أو بطريقة أوضح عن حد الحركة ،لان الزمان والمكان شيئان أولهما قياس الحركة من جهة المتقدم والمتأخر ،وثانيهما سطح لا يعرف إلا من قياس وضع الاجرام ولا يدرك إلا من حركتها .

الى هذا وحده أعزو السبب في تسليم أبي العلاء بان الخالق حكيم ، واليه أعزو نكرانه بانه بلازمان ولا مكان. فاذا أضفت الى ذلك قول المناطقة بان العلة الكاملة يجب أن يوجد معها معلولها عرفت كيف أن ابا العلاء انما يستند في قوله هذا الى المنطق فاذا قيل بان الله (سبحانه وتعالى) بلازمان اقتضى ذلك القول بان معلوله أي الكون لا بدله من احدى حالتين : فاما انه قديم: واما انه حادث: فاذا كان قديما قيل لك بانه مشارك للعلة في عدم الحد بالزمان . واذا كان حادثا قيل لك بان علته كانت ناقصة ثم كملت. وهكذا دواليك تدخل في بحث لن تعرف له من نهاية ،اذا ما أردت ان تذهب في بحث أبي العلاء من ناحية معتقده في الله لا بعد من قولك بانه كان لا أدريا في المجردات والنظر الغيبي ،حسيا لدى نظره في نظام الطبيعة ،لا يرضى عن حقيقة إلا اذا قاسها على حالات جسمه الطبيعية أو إلا اذا أتته من طريق الحواس أو اذا وافق القول بها ألفة عقله .

والدلائل على شك أبي العلاء في التقاليد كثيرة نكتفي منها بقوله :

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم إثر آدم

وقوله :

قال قوم ولا أدين بما قا لوه ان ابن آدم كابن عرس
جهل الناس ما أبوه على الد هر ولكنه مسمى بحرس
في حديث رواه قوم لقوم رهن طرس مستنسخ بعد طرس

وقوله :

يقولون ان الجسم ينقل روحه الى غيره حتى يهذبها النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة اذا لم يؤيدما أتوك به العقل

بل نذهب في عقيدة أبي العلاء الى شيء أكبر من هذا . نذهب الى أنه كان جاحداً للاديان متشككا فيها . أما شعره فيدل على كثير من الشك ومطاوعات اللاأدرية الممسوسة بأثر المرونة الفكرية الى حد بعد بعيد . ومن طبيعة الشك أن يتراوح فيه الانسان بين شيء ونقيضه. على انك تجد أنه إن ذكر الدين بخير مرة فانه انما يذكره بذلك الخير ليصارحك من بعد ذلك بجحوده له. وبانه لا يعتقد أن باريء الكون ومدبر أمره قد يعنى بالحيوان الناطق عناية من يشفع اليه بالرسول تلو الرسول ليهديه الصراط السوى. لهذا يتلخص ما نريد أن نقول في عقيدة أبي العلاء في أنه كان جاحداً للاديان معتقداً بالله اعتقاداً ينزل الى نموذج مستمد من أحط ناحية من نواحي الطبيعة البشرية هي ناحية ادراك الحس، ولهذا لا يستطيع أن يتصوره بلا زمان ولا مكان

وان أردت شواهد على جحوده الاديان فاليك بعض ما قال:

ومتى ركبت الى الديانة غالها فكر على حسن الضمير دسائس
والعقل يعجب والشرائع كلها خبر يقلد لم يقسه قائس
متمجسون ومسلمون ومعشر متنصرون وهائدون رسائس

وبيوت نيران تزار تعبداً ومساجد معمورة وكنائس
والصابئون يعظمون كواكبا وطباع كل في الشرور حبائس

فهو اذن يقول بان الشرائع تقليد وهو بقوله هذا انما يفسر حقيقة تلك الفكرات التي تدس على حسن ضميره، أي على وراثته التقليدية التي يحاول دائماً أن يرضيها اذا ما فكر في أمور الدين. وهو يقول بأن المجوس والمسلمين والنصارى واليهود والصابئين لم تهذب أديانهم من نفوسهم ولم تزك من طبيعتهم، ولذلك تراهم في الشرور سواء وانهم شرع في حكم الطبع البشري الرسيس في الدنايا. وتلك آية من آيات جحوده للاديان. فاذا كان الدين شرع للهداية ثم عجز في رأى أبي العلاء عن تأدية وظيفته، وان الناس بعد اتباعهم مراسيم الشرائع لا يزال طبع الشر غالباً فيهم! فعلام الدين وعلام الشرائع وعلى أي شيء يبقى العقل من كل هذا؟

ثم ارجع الى قوله :

ان هلات أفواهكم فقلوبكم ونفوسكم دون الحقوق مهلله
آليت ما توارتكم بمنيرة أن الفيت فيها الكميت محلله
لا تأمنوا برق الغمام فانما تلك السيوف من القضاء مسلله
قال افتكار في الحوادث صادق جعل الصعاب من الذار مذلله
هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلله

وعلى هذا يكون :

اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

هنا يتجلى لك أن أبا العلاء كان كما يقول المتأخرون «ديئست» وهذا معتقدنا فيه. أي انه كان جاحدا للاديان معتقداً بالله. فعنده أن أهل الارض اثنان أولهما ذو عقل. لا يسلم عقله بان معلولا يمكن أن يوجد بلا علة، ولذا فهو يعتقد بالله، أي بعلة العلل وبارىء الاشياء. وآخر ذو دين يجمع بين المتناقضات (في رأى أبي العلاء) ولذا يكون بلا عقل. ثم عد الى قوله: —

دين وكفر وأبناء تقص وفر قان ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرد يوما بالهدى جيل

فالدين والكفر والنزاع فيهما والانباء التى تقصها كتب التنزيل عن الاولين والفرقان والتوراة والانجيل انما هى فى نظره أباطيل يدان بها، وانه لم يتفرد جيل واحد من أجيال الانسانية بالهدى الذى يراه أبو العلاء. وما هو ذلك الهدى ؟ هو ترك التقاليد الدينية التى لم يقسها ولم يفندها عقل مستقل، ثم معرفة الله سبحانه وتعالى كل انسان بقدر ما تحتمل عقليته. والا فلو اتبع جيل هدى جيل غيره لاصبح بمقتضى تنافر وجهات النظر من الاباطيل كما يقتضى تسلسل الفكرة عند أبى العلاء . ويقول:

آله قادر وعبيد سوء وجبر فى المذاهب واعتزال
وبالكذب انسرى وضح وليل ولم تزل الخطوب ولا تزال
ولولا حاجة في الذئب تدعو لصيد الوحش ما اقتنص الغزال

فهو بذلك يعتقد في آله قادر برأ الاشياء وبرأ عبيد سوء ذهبوا الى جبر واختيار في المذاهب واعتزال . ولا يدلك على فكرته فى ذلك مثل قوله :

ان كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على من يفعل
والله اذ خلق المعادن عالم أن الحداد البيض منها تجعل
سفك الدماء بها رجال أعصموا بالخيل تلجم بالحديد وتنعل
لا تس نار فى الضمير فراشة فضغائن الصدر الحريق المشعل

هو اذن ممن يقولون بالاختيار فى أفعال الانسان . وهو اذن يعتقد بأن الله لا يريد الشر وان كان يعلمه ، وأن فعل الشر على ذلك من اختيار الانسان ومن نتاج شهواته وانفعالاته ، بل ومن مخترعات عقله . فالله عند ماخلق المعادن كان يعلم أن السيوف المهندة البواترة تصنع من صنف منها . ولكن من الذى سفك

الدماء بها ؟ سفكها بها رجال اعتصموا بظهور الخيل المطهمة وألجموها الحديد ليردو جماحها و يسيروها حسب إرادتهم .

يعتقد أبو العلاء أن الله خير محض لن يأمر بفعل الشر لان الخير المحض لايصدر عنه الا خيرا محضا . فكيف يمكن أن يعتقد انسان ينزه الله سبحانه وتعالى بأن تصدر منه ارادة شر ويكون في يقينه بأن الله خير محض مخلصا لنفسه ولضميره مرضياً لألفة عقله ؟ الله يعلم الشر أنه شر ولكنه لايجعل ارتكابه على انسان قدراً مقدوراً كما يقولون ، والا لتنافي مع بديهة العقل أن يستحق مرتكب الكبائر عقابا ، أو فاعل الخير ثوابا . لان الانسان في تلك الحال لايكون الا آلة مسيرة حسب مشيئة الاقدار لاتستحق من مثوبة ولا عقوبة . بهذه الفكرة يقول أبو العلاء ، وعليها يوافقه كثير من متنطسي الباحثين .

ولعله تتاح لنا فرصة أخرى نوفي فيها هذا البحث حقه ونقارن بين فكرة أبي العلاء الفلسفية و بين فكرة عمر الخيام ، فان ذلك يظهرنا على شيء من طبيعة الفكر الانساني وكيف تنتقل الفكرات من جيل إلى جيل متدرجة في أشكال من التغيير والتفاوت لانهاية لتنوع صورها .

برقين — ١٩٢٦